مفهوم الإصلاح في القرآن المجيد:
دراسة في أسبابه ومظاهره

إسماعيل الحسني*

الملخص

يتناول هذا البحث كيفية فهم الإصلاح في القرآن الكريم فهماً منهجياً، وذلك بعد إبراز حدود التحليل اللغوي لمفهوم الإصلاح، ثمّ استعراض هذا المفهوم في سياق ما طرحه القرآن الكريم من أسباب تكوّنه، ومظاهر تجسّده. وقد قصرنا النظر في هذا البحث على أمرين اثنين: أولهما التدافع الذي يقابل الجمود، ويسعى صاحبه باستمرار إلى تضييق شقّة التناقض بين الأقوال والممارسات. والثاني التوسّط بوصفه عملاً تحليلياً لواقع الناس، لا فضيلةً أخلاقية فحسب.

الكلمات المفتاحية: الإصلاح، التدافع، التوسط، الجمود.

The Concept of *Islaḥ* in the Glorious Quran: Reasons and Manifestations

Abstract

This article attempts to understand the concept of *iṣlaḥ* (reform) as presented in the Qur'an in a methodological manner. After highlighting the limits of linguistic analysis of the concept of *iṣlaḥ* (reform), we have reviewed this concept within the context of the Qur'anic text.

We have limited this discussion to two issues: (1) discussion of intellectual struggle as opposed to passive stagnation, seeking to narrow the gap between words and actions; (2) the discussion of moderation (*tawassuṭ*) as *praxis*, not simply as a moral virtue.

Keywords: Reform, Intellectual struggle, Moderation, Stagnation.

---

* دكتوراه في مقاصد الشريعة، أستاذ مقاصد الشريعة بجامعة القاضي عياض – مراكش- المملكة المغربية. البريد الإلكتروني: ismail_hassani@ymail.com

تم تسلم البحث بتاريخ ١٦/٤/٢٠١٤م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢٥/٨/٢٠١٤م.

مقدمة:

يكاد يُجمِع المتتبعون على أنّ كلمة "الإصلاح" هي من الكلمات الرئيسة التي يكثر تداولها في الخطاب الإعلامي والسياسي، وفي مختلف أشكال الإنتاج العلمي والفكري المنشغل بشؤون المسلمين وأحوالهم، إلّا أنّ معظم مؤرّخينا ومفكّرينا وفقهائنا يُقِرّون بفشل الإصلاح، وبعدم قدرة معظم المسلمين على تجاوز عوائقه وموانعه.

يُنبِّهنا عبد الله العروي على فشل الإصلاح في العالم العربي، ويعزوه إلى أسباب عدّة، أبرزها اختلاف نظرة الحكّام والمحكومين (أو مَن يتكلّم باسمهم من فقهاء ومثقّفين) إلى الإصلاح.[١] ويُؤكِّد محمد عابد الجابري أنّ الإصلاح الذي يطمح غيرنا إلى إقامته في بلداننا قد بدأ حقّاً. يقول في ذلك: "بالإفساد، ليس فقط إفساد ما كان من صلاح قائم أو منتظر، بل أيضا بإرباك وطمس الطريق إلى الإصلاح الحقيقي، ومن ثم تعتيم الرؤية التي تنشد الإصلاح."[٢] أمّا طه جابر العلواني فقد استخلص من تجاربه العملية ودراساته الأكاديمية حقيقةً مفادها أنّ الفهم المنهجي للإصلاح هو "الغائب الأول"[٣] عن فكر الحركات الإسلامية المعاصرة وممارساتها.

ولكنّ الثابت أنّ كلّ آية من آي القرآن الكريم تنطوي على مصلحة واحدة أو مصالح عدّة، عَلمها مَن عَلمها، وجهلها مَن جهلها. لذا، لا نستغرب ارتباط البحث في الخطاب الإصلاحي القرآني بمباحث علمية متعدّدة. فالبحث في هذا الخطاب مرتبط بالفقه؛ إذ الهدف من تشريع الأحكام الشرعية مصلحةُ الناس. وهو مرتبط أيضاً بعلم الكلام. ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى أنّ المعتزلة قد جعلوا فكرة "الصلاح" أصلاً

[١] يرى الحاكم أنّ الإصلاح هو تقوية السلطة بذريعة مدافعة الأعداء، فيعمل على تدريب الجيش وتسليحه بأسلحة حديثة متطورة. غير أنّ الإصلاح في نظر المحكوم يعني القضاء على أسباب الفساد والانحطاط، وفي مقدّمتها الاستبداد. انظر:

- العروي، عبد الله. **مفهوم الدولة**، البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط٨، ٢٠٠٦م، ص١٣٠وما بعدها.

[٢] الجابري، محمد عابد. **في نقد الحاجة إلى الإصلاح**، بيروت: منشورات دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٥م، ص١٥-١٦.

[٣] العلواني، طه جابر. **أبعاد غائبة في فكر وممارسات الحركات الإسلامية المعاصرة**، القاهرة: مصر، دار السلام، ط١، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م، ص٧٦.

من الأصول التي يقوم عليها مذهبهم، بل إنّ بعضهم نادى بمفهوم "الأصلح"؛ أي إنّ الله تعالى لا يفعل إلّا الصلاح.

وبالمثل، فقد تحدّث علماء الأصول عن حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال التي تنتظم في خيوطها الشريعة الإسلامية، فارتبط عندهم دوام الصلاح بمدى إقامة هذا الحفظ في مراتبه الثلاث: الضروريات، والحاجيات، والتحسينات، فضلاً عن مُكمِّلات كلّ مرتبة.

وكذلك يرتبط البحث في الإصلاح القرآني بمبحث القصص القرآني؛ لأنّ المقصود من هذه القصص هو إصلاح الناس، لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (يوسف: ٣). ويشير قوله تعالى "أحسن" إلى أنّ المقياس الحسن في قصص القرآن لا يقتصر على تجديد النشاط فحسب، بل يتعدى ذلك إلى نفع الناس، وتنظيم شؤون حياتهم المختلفة. وإنّ المتأمِّل لهذه القصص ليلحظ كيفية ترتيب المُسبِّبات على الأسباب؛ سواء أكان ذلك في البناء والعمران أم في الهدم والتخريب. قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ (النمل: ٥٢). فضلاً عن أخذ العِظة والعبرة من أحوال الأمم الغابرة، مثل: قوم نوح، وعاد، وثمود، وأهل الرسّ، وأصحاب الأيكة.

يتبيَّن ممّا سبق أنّ علماء المسلمين أكّدوا أهمية الخطاب الإصلاحي في الإسلام، وبيَّنوا أثره في تسيير مختلف مناحي الحياة؛ ما يُعَدّ حافزاً ودافعاً إلى اهتمام العالِم المسلم بمفهوم الإصلاح في القرآن الكريم، وانشغاله بخطابه وبنيته وأسبابه ومسائله المتعدّدة؛ إذ لم يُعْلِ القرآن شأن أمر من الأمور مثل العمل الصالح. قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠).

ولا شكّ في أنّ أهمية الخطاب الإصلاحي القرآني تُحتِّم على جميع المصلحين رفع شعار الإصلاح، والدعوة إلى ممارسته من منظور القرآن الكريم، والسنّة النبوية الشريفة، فنجد في كلامهم استحضاراً لكثير من الآيات التي تنادي بالإصلاح، وتحثّ على الاتصاف به. فضلاً عن التعرّض لبعض تعريفات الإصلاح التي قدّمها المفسّرون والمصلحون القدامى.

وفي نظري أنّ ثمّة أمرين يعضدان هذه الأهمية في العصر الحديث: أولهما تحوّل العالم إلى بنية متعاضدة متساندة مترابطة في مكوّناتها وعناصرها بسبب تطور وسائل الاتصال والإعلام. والثاني بلوغ العلم الإنساني بالمجتمع والإنسان والكون مبلغاً معرفياً متطوراً قياساً على ما بلغه الإنسان من علم في ما مضى. وأكاد أجزم أنّ هذين الأمرين قد سهّلا كثيراً من أمر التعارف بين البشر. نعم، لا شكّ في ذلك. ولكن، لا نقصد بالتعارف هنا معناه التقني الذي شبّهه سيف الدين عبد الفتاح بِ"قشرة اتصالية ومعلوماتية،"[٤] وإنّما نقصد به الانفتاح المستمر الواعي الذي يُحفِّزنا جميعاً إلى التفكير النقدي والمعالجة الجادّة لإشكالية المفاسد التي تنتشر في أنحاء المعمورة، خاصّةً مفاسد المجاعات، وسوء توزيع الثروات، والبيئات الملوّثة، والصراع والطغيان... .[٥]

إنّنا لا نروم في هذا البحث استقراء عاقبة الفساد والصلاح التي تكون في اليوم الآخر، فيجازي الله تعالى بها المصلح المحسن على صلاحه وإحسانه، ويعاقب المفسد المسيء على فساده أو إساءته. فما يهمّنا هو الإصلاح والإفساد المرتبطان بحياتنا الدنيا الفانية، ودليل ذلك سؤال الملائكة المشوب بالتعجب ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ (البقرة: ٣٠)؛ ذلك أنّهم علموا أنّ مراد الله ﷻ من خلق الأرض هو صلاحها وانتظام أمرها، لا تخريبها وإفسادها. لذا، فإنّنا نعضّ على هذا التنبيه بالنواجذ؛ لأنّ الاهتمام بإصلاح أعمالنا الدنيوية هو نوع من أنواع الفقه الذي غفل عنه المسلمون كثيراً بدعوى تحقير الحياة الدنيا، فوقعوا في محظور إهمال إصلاحها.

إنّ التفكير في الإصلاح، الذي اكتنزته سور القرآن الكريم وآياته، هو مقاربة مستأنفة لسؤالين رئيسين متلازمين، لا يغني جواب أحدهما عن الآخر:

-كيف يمكن فهم الإصلاح في القرآن الكريم فهماً منهجياً؟

---

[٤] عبد الفتاح، سيف الدين. **العولمة والإسلام رؤيتان للعالم**، دمشق: دار الفكر، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص١١٣. لتعرُّف المزيد عن مفهوم التعارف كما يفرضه واقع العولمة، وما ينبغي له أن يكون، انطلاقاً ممّا يُسمّيه سيف عبد الفتاح بِ"النموذج المقاصدي"؛ انظر: ص١٣٧ وما بعدها.

[٥] أي التعارف الوارد في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ (الحجرات: ١٣).

-كيف يمكن تطبيق منهج الإصلاح الذي جاء به القرآن الكريم على الأمة في كلّ زمان ومكان؟

وللإجابة عن هذين السؤالين، ينبغي أولاً تناول هذا الموضوع من ثلاثة محاور، هي: مفهوم الإصلاح لغةً، وتعريف الإصلاح من وجهة نظر بعض العلماء والباحثين، وأسباب الإصلاح ومظاهره من منظور قرآني.

أولاً: مفهوم الإصلاح لغةً

هل يمكن استكناه مفهوم الإصلاح القرآني عن طريق التحليل اللغوي؟ بدايةً، دعونا نستعرض أبرز استعمالات مادة "صلح" و "فسد" في اللغة العربية. يقال: أصلح الشيء؛ أي جعله صالحاً، فيكون الإصلاح نبذ الخلاف بين المختصمين لأنّه يُفضي إلى صلاحهم بعد ما كانوا فاسدين، فتأتلف قلوبهم ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ (الأنفال: ٦٣).

وإذا وسمنا الإنسان بصفة الصلاح كما في قول "الإنسان الصالح" فإنّنا نقصد بذلك ما يصدر عنه من أقوال وأفعال حسنة. أمّا الصالحون من البشر فهم الذين لا تفارقهم صفة الصلاح. وأمّا نسبة الصلاح أو الإصلاح إلى الأشياء فتعني ما تفضي إليه من نتائج حسنة، ومن ذلك قولنا "المال الصالح"؛ أي المال الذي يُصرَف في أوجه الخير.

وأمّا نعت العمل بالصالح في قول "العمل الصالح" فيعني العمل بما جاء به الدين الإسلامي. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (فصلت: ٣٣). وقد عرَّف الإمام ابن عاشور العمل الصالح بقوله: "العمل الذي يصلح عامله في دينه ودنياه صلاحاً لا يشوبه فساد، وذلك العمل الجاري على وفق ما جاء به الدين."[٦]

وقولنا "الصالحات" جمع "صالحة"؛ وهي الخصلة أو الفعلة الحسنة، أعني تلك التي توصف بالصلاح؛ لأنّهم يقولون "صالحة"، و"حسنة"، ولا يُقدِّرون موصوفاً محذوفاً. إذن،

---

[٦] ابن عاشور، محمد الطاهر. **تفسير التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، د.ت، ج٢٤، ص٢٢٩.

"الصالحات" جمع "صالحة"؛ وهي الخصلة والفعلة الموصوفة بالصلاح، والتعريف فيها للاستغراق؛ أي كلّ الخصال والأفعال الصالحة التي تتضمّن صفة الصلاح. ولعمل الصالحات أسباب يستوي فيها الناس جميعاً، ومن أعظمها: مراعاة قواعد العدل، والإحسان، والمواساة، وكراهية البغي والعدوان.

خلاصة القول إنّ الإصلاح هو جعل الشيء صالحاً؛ أي ذا صلاح. وبعبارة أخرى إنّ الإصلاح هو كلّ ما يحصل به منتهى ما يُطلَب لأجله.

ويقابل الإصلاح الإفساد،[٧] كما يقابل الصلاح الفساد. ويقال: فسد الشيء يفسد فساداً وفسوداً، وهو فاسد وفسيد.[٨] وقوم فسدى كما قالوا ساقط وسقطى وسَقْطَى، قال سيبويه جمعوه جمع هلكى لتقاربهما في المعنى، وتفاسد القوم تدابروا وقطعوا الأرحام. والمفسدة خلاف المصلحة، والاستفساد خلاف الاستصلاح، وقالوا هذا الأمر مفسدة لكذا؛ أي فيه فساد. وفسد الشيءَ إذا أباره أو أهلكه.

والفساد خروج الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان عنه الخروج أو كثيراً، ويضاده الصلاح.[٩] وقيل: الفساد هو الجدب في البرّ والبحر مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ (الروم: ٤١).

ويبلغ عدد المفردات القرآنية من مادة "فسد" خمسين كلمةً، وقد جاءت بأربع صيغ:

أولاها: صيغة الفعل الماضي كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١)، وقوله ﷻ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ

[٧] اخترنا مادة "فسد" مع أنّ الإصلاح لم يقابل في القرآن بالإفساد فحسب، وإنّما قوبل أيضاً بالسيئات، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ (التوبة: ١٠٢). والمقصود بالعمل السيئ العمل الفاسد أو عمل الشر، كما في قول حذيفة بن اليمان: "كان الناس يسألون النبي ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ..." انظر:

- البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، المنصورة: دار ابن رجب للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم ٣٤١١.

[٨] ابن فارس، أحمد. **معجم مقاييس اللغة**، بيروت: دار الفكر، ط٢، ١٩٩٨م، ص٧٤٨.

[٩] الأصفهاني، الراغب. **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دمشق: دار القلم، ط٣، ٢٠٠٢م، ص٦٣٦.

لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢)، وقوله سبحانه: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ (المؤمنون: ٧١).

ثانيتها: صيغة الفعل المضارع كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤﴾ (النمل: ٣٤)، وقوله ﷻ: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ (البقرة: ٣٠)، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا﴾ (البقرة: ٢٠٥)، وقوله: ﴿مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣﴾ (يوسف: ٧٣).

ثالثتها: صيغة اسم الفاعل كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ (البقرة: ٢٢٠). وقوله ﷻ: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠﴾ (البقرة: ٦٠)، وقوله سبحانه: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١﴾ (يونس: ٩١)، وقوله: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ٢٨﴾ (ص: ٢٨).

رابعتها: صيغة المصدر كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ١١٦﴾ (هود: ١١٦)، وقوله ﷻ: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾ (القصص: ٧٧).

تعرّفنا ممّا سبق أبرز الاستعمالات اللغوية لمادة "صلح" و"فسد"، والصيغ اللغوية التي وردت في كلٍّ منهما في القرآن الكريم، وجملة المعاني التي تتناولها هاتان المادتان؛ والتي تكون حيناً معاني إيجابية (بالنسبة إلى مادة "صلح")، تتمثّل في الإصلاح بين الخصوم، والعدل بين المتقاضيين، ومواساة الناس والإحسان إليهم، وسداد الأقوال، وضبط الأعمال والآثار والنتائج... ومعاني سلبية في أحايين أخرى، تتمثّل في السيئات، والهدم، والإذلال، والتكبّر، وتضييع الحقوق... .

إنّ التحليل اللغوي لمفهوم الإصلاح هو أمر مهم ونافع، ولا يمكن للباحث أن يتخطاه؛ لأنّه يوقف صاحبه على جملة المعاني التي تدل عليها هذه المفردة، ولكنّه لا

يُفضي بنا إلى الإمساك المنهجي ببنية مظاهر الإصلاح في الخطاب القرآني، ولا يتيح لنا الإحاطة بأسباب تكوّنه وتشكّله. وتأسيساً على ذلك، فإنّ هذا التحليل اللغوي محدود؛ لأنّه يَحُول دون الإحاطة بشبكة العلاقات التي تربط مظاهر الخطاب الإصلاحي القرآني بعضها ببعض، والتي تُسهِم في بناء مفهوم علمي لبنيته، فضلاً عن عدم إبرازه وجوه العلاقات التي تربط خطاب الإصلاح بغيره ممّا تطرحه المفردات القرآنية من مفاهيم، مثل: العبادة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ (الذاريات: ٥٦)، والعمارة والإعمار والاستعمار، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١).

ثانياً: تعريف الإصلاح

لقد سبق لبعضهم تحديد مفهوم الإصلاح الإسلامي بصفة عامة، والإصلاح القرآني بوجه خاص. ومن ذلك القول بأنّه مجرّد أمر بالمعروف ونهي عن المنكر. قال ابن تيمية: "الإصلاح هو صلاح العباد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن صلاح المعاش والعباد في طاعة الله ورسوله، ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبه صارت الملة خير أمة أخرجت للناس."[١٠]

ورأى آخرون بأنّه توجّه في الإتيان بما ينبغي، وفي الاحتراز عمّا لا ينبغي. قال الألوسي: "الصلاح عبارة عن الإتيان بما ينبغي والاحتراز عما لا ينبغي."[١١]

وثمة قولٌ بأنّه تمام الاستقامة على الدين. قال الإمام ابن عاشور: "الصلاح تمام الاستقامة في دين الحق."[١٢]

وهناك من يرى بأنّه نَظْمٌ غير مكتمل، أو نَظْمٌ مفتوح على المستقبل وما تفرزه مستجدات الحياة الإنسانية. وقد أشار عبد القادر حامد التيجاني إلى هذا المعنى، قائلاً

---

[١٠] ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية**، مكة المكرمة: دار عالم الفوائد، ص٧٣.

[١١] الألوسي، شهاب الدين محمود. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، د.م: دار الفكر، د.ت، ج٩، ص١٤٥.

[١٢] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١٤، ص٣١٧.

إنّ الإصلاح هو: "الانخراط في عملية متواصلة من إقامة نظام اجتماعي عادل، ثم حمايته وتطويره."[١٣]

ويقول آخرون بأنّه الثبات على حالة الاعتدال والاستقامة، خلافاً للفساد الذي يعني "التغير عن حالة الاعتدال والاستقامة."[١٤]

ويرى أحمد عبادي بأنّ الإصلاح هو إمكانية أو مهارة لها قوام، ومظهر، وعناصر. فقوامها "نقاء الفطرة التي تضمن المواءمة مع الكون والإنسان"، ومظهرها متمثّل في "قرن الوجهة الملائمة بالحركة التي يفرضها الموقع للتوجّه نحو القبلة، وفي عمل الصالحات الذي ينبغي أن يستمر ما دامت الحياة". قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ (الحجر: ٩٩). أمّا عناصر الصلاح فتتمثّل في الآتي:

- معرفة الإنسان الوجهة.

- إضافة الإنسان الوجهة إلى العمل المخصوص بالمقدار المخصوص، والزمن المخصوص بالمقدار المخصوص.

- القِبْلة بما تعنيه من نية التوجّه إلى الله بالعبادة.

وهذه العناصر كلّها ترتبط بقدرة الإنسان الصالح على توجيه طاقة التساؤل بحيث تربط بين العمل والعبادة، فيصبح بذلك الإنسان الصالح هو "القادر بعلمه، أو سؤال أهل الذكر إن كان لا يعلم ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾ (النحل: ٤٣) على أن يضيفه إلى حركته انطلاقاً من وعيه الدائم بقبلته، ووظيفته، ومصدر رشده... عن طريق استنطاق هذا المصدر بالترتيل قصد التلاوة. وصناعة هذا الإنسان الصالح المصلح تكون بضبط تصورات الإنسان للوجود، وعلاقاته بالله والكون والإنسان والحياة الدنيا والآخرة."[١٥]

---

[١٣] التيجاني، عبد القادر حامد. "الإصلاح في القرآن: استكشاف المفهوم وبناء النظرية"، **مجلة إسلامية المعرفة**، عدد٦٦، ٢٠١١م، ص١١.

[١٤] التوحيدي، أبو حيان. **تفسير البحر المحيط**، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٨٣م، ج١، ص١٩١.

[١٥] عبادي، أحمد. **مفهوم الترتيل في القرآن الكريم: النظرية والمنهج**، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ٢٠٠٧م، ط١، ص١٦٢. انظر أيضاً: ص٢٣١، و ص٢٣٤، و ص٢٤١-ص٢٤٤. للاستزادة، انظر:

ولا نكاد نعثر عند أصحاب هذه التعريفات ما يساعدنا على الوعي بأسباب تكوّن الإصلاح وبنية مظاهره. وبعبارة أخرى، فإنّها تعريفات يلامس كلٌّ منها جانباً من جوانب الإصلاح الرئيسة التي نادى بها القرآن الكريم.

فبالرغم من أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما من الفرائض الإسلامية التي يقوم عليها الإصلاح القرآني، إلّا أنّهما لا يُمثّلان وحدهما جوهر الإصلاح القرآني وعماده. والتوجّه اللازم الواجب الذي يُعَدّ أساساً في إرادة الإصلاح؛ جَلْباً له، ودرءاً لما يناقضه، يفتقر إلى إبراز حقيقة وكُنْه ما ينبغي الاحتراز منه، أو الإتيان به.

ولئن كان الإصلاح هو تمام الاستقامة على الدين؛ الغاية النهائية للإصلاح القرآني، فإنّه يفتقر إلى العناصر الموصلة إليها.

وإذا كان التسلسل الإصلاحي قد أضفى على مفهوم الإصلاح منحًى نسبياً، فإنّه غفل عن الطابع المركّب والبنيوي لفعل الإصلاح نفسه. والقول بأنّ الإصلاح هو مهارة إنسانية تُظهِر مسؤولية الإنسان في حسن تنزيل الإصلاح وتطبيقه، ينقصه الاستحضار الكامل لمظاهره المتعدّدة، وأسبابه المكوّنة.

مجمل القول إنّ معظم أصحاب هذه التعريفات لم يلتفتوا إلى أسباب نشوء الإصلاح، وتمثُّله في مظاهر اعتقادية وفكرية وعملية.

ومن غير المُقنِع (علمياً ونقدياً) قول التيجاني بأنّه من غير الممكن، بل ربّما من غير المفيد دراسة كلّ المواضع التي وردت فيها مادة "فسد" و "صلح" في القرآن الكريم.[16] فإنّ هذا القول بحاجة إلى إعادة نظر وتأمُّل؛ لأنّ استنفاد الباحث جهده العلمي في تتبع هاتين المادتين في القرآن الكريم من شأنه أن يكشف عناصر أساسية لمفهوم الإصلاح لا تمسّ أسبابه فحسب، بل تمسّ أيضاً مظاهره. ولا ننسى في هذا الباب أنّ الوصول إلى مرحلة صياغة المفاهيم القرآنية هو مؤشّر مهم ودليل واضح على نضج المعرفة العلمية

– عبادي، أحمد. **قراءة في كتاب "مفهوم الترتيل في القرآن الكريم: النظرية والمنهج"**، الرباط: دار اقرأ، ط١، ٢٠٠٧م، مجلة الترتيل، العدد ١، ٢٠١٣م، ص٢٠٩.

[16] التيجاني، **الإصلاح في القرآن: استكشاف المفهوم وبناء النظرية**، مرجع سابق.

بالقرآن الكريم؛ لأنّ العقل العلمي لا يتعامل مع الموضوع العلمي إلّا بالمفاهيم التي تُعَدّ قوالب ذهنية تفضي إلى معطيات متنوّعة ومتعدّدة، والتي تُبرِز درجةً من درجات سلّم الشمول التي ينبغي أن يتصف بها علم العالِم بالقرآن الكريم.

ولكن، قبل أن يكون الإصلاح مفهوماً علمياً، يبنيه الباحث ويصوغه في سياق تدبُّره للقرآن الكريم، فإنّه مفهوم قرآني سيق في مقامات مختلفة، ويحوي بين جنباته كنوزاً من المعاني التي لا يحيط بها إلّا الله ﷻ. لذا، آثرنا أن نستعمله، ونتدبّره، ونُجهد أنفسنا من أجل وضعه في سياقين اثنين: الأول: سياق ما له من مظاهر يعرضها القرآن الكريم. والثاني: سياق ما يطرحه القرآن الكريم من أسباب تكوّنه.

ثالثاً: الأسباب المُكوِّنة للإصلاح

من المعلوم أنّ لكلّ مُسبَّب سبباً، ولكلّ نتيجة مقدّمةً، وكذلك الحال بالنسبة إلى الصلاح أو الفساد. وقبل أن نعرض لمظاهر الإصلاح أو الإفساد يتعيَّن علينا أولاً تبيُّن الطريقة التي تناول بها القرآن الكريم مسألة الإصلاح، ولا يكون ذلك إلّا بتقصّي الأسباب المفضية إلى كلٍّ من الصلاح والفساد. وقد أفضى استقراؤنا لمادة "صلح" و"فسد" في القرآن الكريم إلى التمييز بين مستويين:

- المستوى الاقتراني الذي يربط الإصلاح المطلوب بأمور عدّة يقترن بها، مثل: التوبة كما في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ (الأنعام: ٥٤)، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾ (البقرة: ١٥٩-١٦٠).

والإرادة الصادقة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ (النساء: ٣٥)، وقوله ﷻ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ (هود: ٨٨).

والقول السديد كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١).

والقتال في سبيل الله كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ (محمد: ٤-٥).

- المستوى السببي الذي يربط بين التدافع والفساد من جهة، وبين الإسراف والفساد من جهة أخرى. ويتضح ذلك بصورة جلية في الآية ٢٥١ من سورة البقرة، والآية ١٥١ من سورة الشعراء، والآية ٤٠ من سورة الحج. وهكذا يتمثَّل السبب الأول في التدافع المُحقِّق للصلاح مقابل الجمود والتناقض المُفضي إلى الفساد. وقد دلّ على ذلك بوضوح تام قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١). ولو غاب التدافع بين الناس لحصل الفساد الأرضي الذي يظهر في مظاهر متعدّدة، أبرزها ما ورد في سورة الحج: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج: ٤٠). ويتمثَّل السبب الثاني في التوسّط المنتج للصلاح مقابل الإسراف والتطرّف المنتج للفساد. وقد نصّ على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)﴾ (الشعراء: ١٥١-١٥٢). فقد دلّ المفهوم المخالف للآية على أنّ طاعة غير المسرفين سبيل للإصلاح؛ لأنّهم يصلحون في الأرض ولا يفسدون.

١. التدافع مقابل الجمود:

الإنسان اجتماعي بطبعه، كما يقول علماء الاجتماع، ولا بُدّ أن يُفضي اجتماعه بغيره من البشر إلى خلاف في الأهواء والرغبات المعنوية، وإلى تعارض في المصالح والمنافع المادية. فالنفس البشرية مفطورة على غرائز متقابلة من الإيثار والأثرة، والأنانية والتواضع، وغيرها من الغرائز المتضادة والمتناقضة. وكذلك العقل الإنساني فهو مفطور على بناء الإدراكات المتقابلة من العلم والجهل، والذكاء والغباء... فكلّها متناقضات تُنتج جدلاً في الآراء والأفكار والمذاهب، وصراعاً في المصالح والأهواء، وهو ما يُفسِّر سبب اختلاف

الناس في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ (هود: ١١٨).

ومن مظاهر هذا الاختلاف قيام الخلق على رابط الزوجية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ (الذاريات: ٤٩). ومن أبسط دلالات الزوجية أنّ الزوج مختلف عن زوجه ومُكمِّل لها. فعلى سبيل المثال، تقوم علاقة الزوج بزوجه على الحب والود والتقدير، لكنّ التعايش بينهما يُفضي إلى نوع من الصراع والتدافع، تفرضه تقلّبات العواطف والأمزجة، وتقتضيه أنواع الفهم ومستويات الإدراك، وتستلزمه تضارب المصالح والمنافع والرغبات. ولا يقتصر هذا الصراع على الإنسان الفرد، وإنّما يشمل الجماعات والمجتمعات والأمم.

أ. مظاهر التدافع:

يستمد التدافع -بوصفه صراعاً أو غلبةَ طرفٍ لآخر- وجوده ممّا أسبغه الله تعالى على الناس من قوة يدفع بها بعضهم بعضاً. ولولا قوة الدَّفع هذه، وإيجاده -سبحانه- بواعثها لفسدت الأرض، واختلّ نظام الحياة فيها للمخلوقات جميعاً على اختلاف أجناسها، وأنواعها، وأصنافها.

تتنوّع قوة الدفع لدى الإنسان، فمنها ما هو من قبيل قوة الدفع الشهوانية اللازمة لبقائه وبقاء نوعه. ومنها ما هو من قبيل قوة الدفع الغاضبة لردّ المفرط في طلب النفع لنفسه، وإعانة القوي الضعيفَ، وردّ الجميع إلى جادة الصواب. وفي ذلك حفظ لبقية الأنواع؛ لأنّ الإنسان يذبّ عنها، لما في بقائها من منافع له. ومنها ما هو من قبيل قوة الدفع العاقلة للدفاع عن الآراء والأفكار والعقائد بالحجج والبراهين. فلولا قوة الدفع الشهوانية والغاضبة والعاقلة التي أوجدها الله تعالى في الكائنات لطغى بعضها على بعض، وفسدت الأرض. لذا، كان لزاماً دفع الناس بعضهم بعضاً، فيدافع المصلحون المفسدين. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ (البقرة: ٢٥١). وقال ابن عاشور في هذه الآية:

"مضمون هذه الآية عبرة من عبر الأكوان، وحكمة من حكم التاريخ ونظم العمران التي لم يهتد إليها أحد قبل نزول هذه الآية."[١٧]

تشير الآية الكريمة الآنف ذكرها إلى أحد أسباب الفساد أو الصلاح الرئيسة. فلولا التدافع بين الناس لحصل الفساد في الأرض، فكان التدافع لازماً حتى يكون الصلاح. وهو تدافع يُفضي إلى صراع بين الناس، ومحاولة كلّ طرف النيل من الطرف الآخر، ويتجلّى ذلك في مظاهر عدّة، أبرزها: الصراع العسكري، كما في الحروب التي يحتدم فيها القتال ومقارعة الأعداء؛ سواء أكانت حروباً يحاول فيها أحد الأطراف غصب حقوق خصمه، أم حروباً يسعى فيها صاحب الحقّ إلى ردّ الظلم وكبح جماح الظالم. وتأسيساً على ذلك، فإنّ التدافع هو سبب رئيس للحفاظ على مصالح الدين، والنفس، والمال، والعرض. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ (الحج: ٤٠). ومن أمثلة ذلك: غزوة بدر، وغزوة الأحزاب، ومعركة اليرموك، ومعركة القادسية، ومعركة حطين، ومعركة عين جالوت التي سبقها اجتياح المغول العراقَ وسوريا، وقتلهم نحو مليون مسلم في بغداد وما حولها.

ومن التدافع ما هو مجتمعي تحكمه الصراعات والنزاعات بين طوائف المجتمع وأطيافه، ومنه ما هو فردي تحكمه الأهواء والمصالح والعلاقات الشخصية، ومنه ما يكون بين فرد وجماعة ضمن هيئة اجتماعية معيّنة، ومنه ما يكون بين فرد وسلطة؛ كحال سحرة فرعون الذين أصرّوا على موقفهم من مسألة الإيمان بالله تعالى، والتصديق برسالة موسى عليه السلام. ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ (طه: ٧٠-٧١). وحال الرسول ﷺ حينما جاء عمّه أبو طالب عارضاً عليه التنازل عن دعوته لقاء ما يطلب من مال وملك وجاه، فقال ﷺ قولته

[١٧] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢، ص٥٠٠.

المشهورة: "والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه".

ومن التدافع ما يكون علمياً ينبري فيه حملة العلم وأولو الفكر والرأي لدحض الباطل، وإزالة شُبَهِ أَهْلِه، فيُثمِر نشاطاً عقلياً، وحركةً علميةً عمادها المناظرة والجدل والاجتهاد. قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (الأنبياء: ١٨).

أضف إلى ذلك أنّ التدافع العلمي والفكري يعيد للأمة حيويتها وألَقَها، وينقذها من الجمود والتقليد الذي أفضى إلى حالة من الفراغ الفكري، ووأد للأصالة والإبداع. ولا شكّ في أنّ العقائد الشِّركية هي سبب رئيس من أسباب الفساد؛ فالشِّرك يكون في الاعتقاد قولاً وفعلاً، وفي ذلك يقول الرازي: "اعلم أن كل فساد يكون فهو بسبب الشِّرك. لكن الشِّرك قد يكون في العمل دون القول والاعتقاد فيسمى فسقاً وعصياناً، وذلك لأن المعصية فعل لا يكون لله، بل يكون للنفس. فالفاسق مشرك بالله بفعله."[١٨]

ومجمل القول إنّ التدافع الواجب ينبغي أن يُؤسَّس على الحقّ، لا على اتباع الأهواء المتضاربة التي تهوي بأصحابها إلى دَرَك الأطماع الشخصية. قال تعالى: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ (المؤمنون: ٧١)؛ أي "لو عمل الرب تعالى ذكره بما يهوى هؤلاء المشركون، وأجرى التدبير على مشيئتهم وإرادتهم، وترك الحقّ الذي هم له كارهون، لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن، وذلك أنهم لا يعرفون عواقب الأمور، والصحيح من التدبير الفاسد. فلو كانت الأمور جارية على مشيئتهم وأهوائهم لم تقرّ السماوات والأرض ومن فيهن من خلق الله لأن ذلك قام بالحق."[١٩]

لا مناص، إذن، من مدافعة الأهواء بالحقائق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (ص: ٢٦)؛

---

[١٨] فخر الدين الرازي، **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، القاهرة: المكتبة التوفيقية، د.ت، ج ٢٥، ص١١.

[١٩] الطبري، محمد بن جرير. **جامع البيان عن تأويل آي القران**، تحقيق عبد الله التركي، دار هجر، ط١، ٢٠٠١، ج ١٧، ص٧٧.

فالهوى سببٌ يؤدي إلى مفاسد عدّة، وهي إمّا مفاسد في الاعتقاد كما في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ (الجاثية: ٢٣)، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ (طه: ١٥-١٦). ولو كان في السماوات والأرض آلهة غير الله لفسدتا؛ لأنّ لكل إله هوىً يناقض هوى الآخر، فيحصل بذلك الخراب والفساد. قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الأنبياء: ٢٢). وإمّا مفاسد في السلوك كما في قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ (الشورى: ١٥).

ب. التدافع ونقد الجمود:

يتمثّل أكبر مظاهر الجمود في عدم القدرة على تحمّل تبعات المساءلة والمحاسبة. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ (البقرة: ٢٠٦).[٢٠] والحقّ أنّ في الآية فكراً نقدياً يشير إلى تهرّب هذه الفئة من المحاسبة والمراجعة والمساءلة؛ إذ سرعان ما تعتريهم حالة من الغضب، وينتصرون لأنانيتهم وأهوائهم الشخصية بمجرّد تعرّضهم للنقد، وهذا ما صوّره السموأل في أحد أبياته:

وننكر إن شئنا على الناس قولهم   ولا ينكرون القول حين نقول

فبدلاً من إقرارها واعترافها بالحقّ، ممُثّلاً في اتساع الهوّة بين ما ترفعه من شعارات مُضلِّلة وما تمارسه من فساد؛ تأخذها العزّة بالإثم. وإزاء هذا الاعتزاز بالإثم، واللَدَد في

---

[٢٠] للآية ثلاثة تأويلات:

الأول: أن يكون الخطاب فيها مُوجَّهاً إلى النبي ﷺ فيكون المقصودُ المنافقين، ومعظمهم -وقتئذ- من اليهود، وفيهم من مشركي أهل يثرب.

الثاني: أن يكون الخطاب فيها مُوجَّهاً إلى شخص معيّن؛ كالأقنس بن شريف الثقفي الذي كان يُظهر المودة للنبي ﷺ، ويتظاهر بالإسلام. ولما انقضت وقعة بدر قيل: إنّه حرَّق زرعاً للمسلمين، وقتل حميراً لهم فنزلت فيه هذه الآية، كما نزلت فيه آيات أخرى، منها: "ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم".

الثالث: أن يكون الخطاب فيها مُوجَّهاً إلى غير معيّن حتى يعمّ التحذير كلّ مخاطَب من أن تنطلي عليه حيل النفاق وأهله. انظر:

- ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٧٠.

الخصومة، والفجور في الإفساد، يأتي الردّ القرآني حازماً مُدوِّياً ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾. فما أبعد هذه الفئة الضالّة عن أولئك الذين وصفهم الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ (الزمر: ١٨). والمقصود بالاستماع هنا الإدراك والاستيعاب، وقد أثبت الله -في كلّ موضع من القرآن الكريم- السمع للمؤمنين، ونفاه عن الكافرين؛ فالقصد به كما قال الراغب الأصفهاني: "تصوّر المعنى والتفكّر فيه."[٢١] لقد أدرك بعض المفسّرين -رحمهم الله- المقصد الإصلاحي الثاوي خلف الاستماع والاتّباع،[٢٢] لكنّ الملاحظ أنّ معظمهم حصر ذلك المقصد في وظيفة نقدية واحدة، يُعبِّر عنها المعنى اللغوي لكلمة النقد. أعني القدرة على تمييز الأشياء بعضها من بعض؛ كتمييز الدراهم الزائفة من الدراهم الحقيقية، وتمييز الخبيث من الطيب، وتمييز الحقّ من الباطل، وتمييز الخير من الشر، وتمييز الحسن من الأحسن، وتمييز الفاضل من الأفضل، وتمييز الراجح من الأرجح.[٢٣]

والحقّ أنّ قدرة المؤمنين على الاستماع والاتّباع لا تتمثَّل فقط في التمييز العقلي بما يعنيه من سلامة الفهم ودقة الاستنباط، وإنّما تشمل أيضاً وظائف مختلفة. ودليلي على ذلك اسم التفضيل في الآية الكريمة؛ فليس المقصود باسم التفضيل تفاوت الموصوف به في الفضل كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ (يوسف: ٣٣)، وإنّما المقصود من اسم التفضيل "أحسنه" هو قوة الوصف الحسن. وقوة الوصف الحسن لا تتجسَّد في وظيفة نقدية واحدة، وإنّما تشمل وظائف نقدية متعدّدة. والشاهد على

[٢١] الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص٤٢٦.

[٢٢] قال الألوسي: "مدح لهم بأنهم نقّاد في الدين". انظر:

- الألوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٢٥٢. وقال الإمام ابن عاشور: "أثنى عليهم الله بأنهم أهل نقد يميزون بين الهدى والضلال، والحكمة والأوهام، نظّار في الأدلة الحقيقية، نقّاد للأدلة السفسطائية". انظر:
- ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٣٦٦.

[٢٣] انظر:

- ابن منظور. **لسان العرب**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م، مادة "نقد".
- الألوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٢٥٢-٢٥٣.
- الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، ج٢٦، ص٢٣٨.

ذلك أنّ النقد يدل تارةً على الفكر المتّقد، والمؤمنون ذوو فكر نيِّر متقد لأنّهم يستمعون إلى الأقوال كلّها. ويدل تارةً أخرى على الفكر الخيِّر الحسن. وأحسن الفكر هو الذي يروم صاحبه الانتقاد، ويبغي الاعتراض، ويتطلّع إلى المساءلة، ولا يُسلِّم بأيّ أمر من دون تمحيص في قيمته المعرفية، أو المنهجية، أو التاريخية، أو الفنية... وكلّها وظائف نقدية ما كان للمؤمنين أن يمارسوها من دون استماعهم لكلّ الأقوال، وما كان لهم أن يؤدّوها من دون اختيارٍ لأحسنها، واتّباعٍ لأفضلها.

والظاهر من قوله تعالى "الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه" اشتماله على قيمة التبصُّر والتفكُّر؛ نظراً إلى استماع المؤمنين للأقوال جميعاً. وقد قيل في تفسير هذه الآية: "يستمعون القرآن وغيره، فيتبعون القرآن". وقيل: "يستمعون القول ممن كان."[٢٤] وقيل: "هو عام في جميع الأقوال."[٢٥]

يتبيَّن ممّا سبق أنّ المؤمنين هم أناس يستمعون لكلّ قول؛ سواء أكان مصدره الكتاب والسنّة، أم ما ينتحله الناس من مذاهب، وما يُدْلون به من آراء واجتهادات، وهم كذلك يملكون قريحةً نقديةً تُعِينهم على تمييز القول الذي يدعو إلى الحقّ والخير والمصلحة من القول الذي يدعو إلى الباطل والشر والمفسدة. لا مجال، إذن، للانغلاق، ولا بُدّ لهم من المُضيّ قُدُماً، والاستمرار في تقديم أنموذج واقعي من الانفتاح الواعي. ودليل ذلك في الآية أنّ التعريف في قوله تعالى "القول" هو تعريف للجنس؛ أي كلّ قول أيّاً كان مصدره ومرجعه، وأيّاً كان مجاله ومستواه.

وقيل أيضاً في تفسير الآية: "يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها لأن في القرآن الأحسن والحسن، كما رغب في الأخذ بالأحسن وأفضليته مع جواز الأخذ بالحسن."[٢٦]

---

٢٤ الأندلسي، ابن عطية. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: المجلس العلمي بتارودانت، الرباط: وزارة الأوقاف، ج١٤، ص٧٣. انظر أيضاً:

- الخازن، علاء الدين، علي محمد بن إبراهيم. **تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل)**، د.م: دار الفكر، ١٩٧٩م، ج٦، ص٧١.
- الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، ج٢٦، ص٣٣٩.
- الألوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٢٥٣.

٢٥ التوحيدي، **تفسير البحر المحيط**، مرجع سابق، ج٧، ص٤٢١.

٢٦ التوحيدي، **تفسير البحر المحيط**، مرجع سابق، ص٤٢١. انظر أيضاً:

المؤمنون يتبعون أحسن الأقوال. والاتباع هنا اختيار لأنه دائر مع الدليل والبرهان؛ إذ هو متابعة مؤسسة ومواكبة واعية لما عند الغير من مذاهب وآراء وأفكار. وإذا تجرد الاتّباع عن الدليل والبرهان لم يكن اختياراً بل كان جموداً على التقليد. ولا خير ينطوي عليه الجمود على التقليد. والطريف في لغتنا العربية أن لفظ الاختيار يتضمن قيمة لأنه مشتق من الخير والتخيّر والخيرة. والاختيار هو السعي إلى الأحسن، أي إلى ما هو خير من خيره وإيثاره عليه لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ (الزمر: ١٨).

لا بُدّ، إذن، من استبقاء التدافع النقدي حيّاً في حياة المجتمع؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ (هود: ١١٦). فالتدافع النقدي بما يعنيه من استنكار للمنكر، ومن مساءلة ومحاسبة، ضروري لمواجهة مختلف أشكال الفساد. فالله تعالى لا يأخذ أهل القرى بظلمهم وفسادهم إذا كان أهلها يتحملون مسؤولية مقاومة أهل الفساد وانتقاد القائمين عليه. قال سيد قطب: "الأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله في صورة من صوره فيجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير. فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد أو فيها من يستنكر، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإن سنة الله تحق عليها، إما بهلاك الاستئصال، وإما بهلاك الانحلال والاختلال. فأصحاب الدعوة إلى ربوبية الله وحده وتطهير الأرض من الفساد التي يصيبها بالدينونة لغيره هم صمام الأمان للأمم والشعوب، وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لإقرار ربوبية الله وحده، الواقفين للظلم والفساد بكل صوره."[٢٧]

ت. التدافع ونقد التناقض:

يُؤكِّد التدافع النقدي حقيقةً مفادها أنّ نجاعة الإصلاح ومشروعيته تُستمَدّان أولاً من شخصية الداعي إليه، ومدى التزام مدّعيه. وليس المقصود، في ضوء هذا الفكر، مجرّد

- الأندلسي، ابن عطية. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، مرجع سابق، ج١٤، ص٧٣.
- الخازن، **تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل)**، مرجع سابق، ج٦، ص٧١.

[٢٧] قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، القاهرة: دار الشروق، ط٣٠، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج٤، ص١٩٣٣.

تحقيق أيّ تميّز أو استقلالية شخصية؛ لأنّ ذلك لن يقترن بالعمل الذي يعكس ماهية الدعوة، ويُظهر حقيقة الادعاء. لهذا نبَّه نبي الله شعيب قومه على أنّ مقصد دعوته وادّعائه لا يقتصر فقط على مخالفة ما نهاهم عنه. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُ﴾ (هود: ٨٨).

والظاهر أنّ الجبابرة والطغاة لا يراعون اتساق أقوالهم مع أفعالهم، فنراهم يسقطون في شرك التناقض الكبير بين ما يأمرون به الناس من برّ وما تدل عليه ممارساتهم من فجور. قال تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (البقرة: ٤٤). ولا يعني ذلك وجوب مطابقة القول للعمل مطابقةً تامةً، وإنّما المطلوب هو أن يبلغ الداعي إلى الإصلاح ومدّعيه مبلغ الاستطاعة "إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت" تماماً كما قال نبي الله شعيب.

والمهم في هذا الاتساق بين واقع الدعوة وحقيقتها العملية هو صدق إرادة الإصلاح. فبالرغم من جهود الـمُصلِحين -مثلاً- في تقريب شقّة الخلافات عامة، والخلافات بين الزوجين بصورة خاصة؛ فإنّ نجاعة تلك الجهود ترتبط بمدى توفر إرادة الإصلاح الصادقة لدى الزوجين والـمُصلِحين. قال تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴿٣٥﴾﴾ (النساء: ٣٥).

إنّ القول السديد هو إحدى طرائق إصلاح العمل لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١). والقول السديد هو قول علمي لا يشمل القرآن الكريم وما صدر عن الرسول ﷺ من قول أو عمل فحسب، وإنّما يشمل كلّ قول يراعي واقع المعرفة العلمية خلال مسيرة الحضارة والمعرفة الإنسانية. والقول السديد أيضاً لا يُصلح فقط عمل الفرد، وإنّما يُصلح عمل المجتمع والأمة. ولـمّا كان ضمير جمع المخاطبينَ (الكاف) يعود على الذين آمنوا، فقد شمل الخطاب المؤمنين في كلّ زمان ومكان، وهذا يُفسّر مغزى تنبيه الرسول ﷺ

للمسلمين على وجوب الاحتراز والتثبُّت في القول: "رحم الله عبداً قال خيراً فغنم، أو سكت عن شر فسلم."[٢٨]

وقد يبدو المرء صالحاً باعتبار أقواله التي تُعجِب الآخرين، وحججه التي يبرع في صياغتها ولحنها، ولكنّه يكون فاسداً في ممارساته. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ (البقرة: ٢٠٤-٢٠٥). فلا يخلو الحال من وجود جماعة من الناس[٢٩] تُناقِض أقوالهم ممارساتهم الفاسدة. تُعجِبنا لأنّ صورتها ومبانيها الظاهرة تدل على الإيمان والنصح للمسلمين، فهي صورة بيانية فيها من الخير بقدر ما فيها من الحبّ، وفيها من الإخلاص بقدر ما فيها من سحر البيان حتى كان صاحبها " ألدّ الخصام".

وبالرغم من الصورة المثالية لهذه الشخصية المتماسكة في منطقها البياني، المتناغمة في عناصرها الشكلية، الراجحة في حججها العقلية، المتناسقة في مبانيها اللفظية، فإنّ صورتها الواقعية تدلّ على الفساد والإفساد في العمران؛ إذ فيها من الشر، والكراهية، والخيانة، والأنانية الشيء الكثير، وفيها من هلاك الحرث بزرعه ونباته وثماره بقدر ما فيها من هلاك للنسل. وقد خصّ الله تعالى الحرث والنسل بالذكر (في هذه الآية) لأنّهما كما قال أبو حيان: "أعظم ما يحتاج إليه في عمارة الدنيا، فكان إفسادهما غاية الإفساد."[٣٠] وتأسيساً على كلّ ما ذكرناه من آفات وهنات، فقد استحقت هذه الصورة المقت الكبير الذي لا يتناقض مع مكارم الأخلاق فحسب، وإنّما يتناقض مع مقتضيات العقل النقدي. قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ (الصف: ٣).

ممّا سبق نصل إلى أنّ التناقض هو ديدن هذه الشخصية؛ إذ شتّان ما بين أقوالها وأفعالها التي تُنذِر بإفساد الأرض، وإهلاك الحرث والنسل. فهي، إذن، شخصية متناقضة

---

[٢٨] السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن. **المقاصد الحسنة فيما اشتهر على الألسنة**، تحقيق محمد عثمان الخشت، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٨٥، رقم الحديث٤٩٩.

[٢٩] لفظة "من" هنا للتبعيض، وهي تصلح للدلالة إمّا على فريق من الناس، وإمّا على شخص معيّن.

[٣٠] التوحيدي، **تفسير البحر المحيط**، مرجع سابق، ج٢، ص١١٨.

تتصف بالخصومة الشديدة "ألد الخصام"، وتفتقر كذلك إلى الشاهد والدليل الواقعي. قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ (البقرة: ٢٠٥). والمقصود بالحرث هنا هو الزرع والنسل. والنسل هو الولد.[٣١] مشتق من نسل الصوف نسولاً إذا سقط وانفصل. وقد كنّى الله تعالى بالحرث والنسل لأنّهما قوام الحياة العربية وقت النزول. فليس المراد، كما قال الإمام ابن عاشور -رحمه الله-: "خصوص هذين، بل المراد ضياع ما به قوام الناس، وهذا جرى مجرى المثل."[٣٢]

٢. التوسّط مقابل التطرّف:

أ. أنواع التطرّف وأشكاله:

توجد صور عدّة للتطرّف يمكن إجمالها في ما يأتي:

- **الإسراف في النفقات**: وهذا النوع من التطرّف منهي عنه، وهو سبب من أسباب الفساد في الأرض. قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ (الشعراء: ١٥١-١٥٢). وقال سبحانه: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ (الأعراف: ٣١). وقد عرَّف ابن عاشور الإسراف تارةً بأنّه "تجاوز الكافي من إرضاء النفس بالشيء المشتهى"، وعرَّفه تارةً أخرى بأنّه "تجاوز الحد المتعارف عليه في الشيء."[٣٣] ولعل أشدّ صور الإسراف تبذير الأموال والطاقات في وجوه الفساد والمحرّمات. قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ (الإسراء: ٢٦- ٢٧)، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ (الفرقان: ٦٧).

---

[٣١] الرازي، زين الدين محمد بن أبي بكر. **ترتيب مختار الصحاح**، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، د.م: دار المشاريع للطباعة والنشر، ط٢، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٦٣٧.

[٣٢] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٧٠.

[٣٣] المرجع السابق، ج٨، ص٩٥، ١٢٣.

- **العُلُو**: وهو شدّة العصيان والظلم لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢﴾ (الفجر: ١١-١٢). فالطغيان يُجرّئ صاحبه على أكل حقوق الناس عامة، والهجوم على المستضعفين منهم خاصة. قال تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣﴾ (الشعراء: ١٨٣).

فبهذا الفساد العظيم تختلّ القوانين والأنظمة، وتثار الحفائظ والضغائن. ولعل أبرز صور الطغيان في هذا العصر تتمثَّل في عدم فاعلية مؤسسات المجتمع المدني، وتقاعسها عن أداء مهامها، ولا سيّما مهمة الرقابة على حقوق الأفراد، ممّا يُحتِّم توفير مزيد من الحرية والشفافية وتكافؤ الفرص بين الجميع. زد على ذلك أنّ الطغيان يُولِّد في نفوس المظلومين الكراهية والبغضاء تجاه الطغاة والظالمين الذين يتنبّهون لذلك، فينشرون عيونهم في كلّ مكان، ممّا يتسبَّب في تفرُّق الأمّة وتشتُّتِها، فتصبح فريسةً سهلةً لأعدائها داخل البلاد وخارجها.

- **انعدام التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة**: تقوم مصلحة الفرد على كسب الأموال وجمعها عن طريق العمل، والسعي إلى تنمية ثرواته المشروعة، في حين تتمثَّل مصلحة المجتمع في الرقابة على طرائق تحصيل الأموال، ومناحي إنفاقها، وسبل الاستمتاع بها. أمّا الإسراف هنا فيتمثَّل في اختلال التوازن بين هاتين المصلحتين، والأصل أن لا تطغى مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد بحيث تُكبِّله، وتعوقه عن التمتّع بثمرات كسبه، وأن لا تطغى مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة، فتضيع حقوق المجتمع. يقول سيد قطب في ذلك: "الإسلام يعترف بالملكية الفردية ويقدر الجهد الفردي الذي بذل في تحصيلها من وجوه الحلال... ولا يهون من شأن الجهد الفردي أو يلغيه، ولكنه في الوقت نفسه يفرض منهجاً معيناً للتصرف في الملكية الفردية... هو منهج متوازن متعادل، لا يحرم الفرد ثمرة جهده، ولا يطلق يده في الاستمتاع به حتى الترف، ولا في إمساكه حتى التقتير، ويفرض للجماعة حقوقها في هذا المال."[٣٤]

[٣٤] قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج٢٠، ص٢٧١٢.

- **المبالغة في العقاب**: لا يخفى على كلّ ذي لُبّ أنّ معاقبة المسيء على ما ارتكبه هي عمل صالح نافع. نعم، لا شكّ في ذلك. ولكن، إذا تجاوزت العقوبة مرتبتها ودرجتها المناسبة للفعل الفاسد المُرتكَب تحوّلت العقوبة إلى فعل فاسد. قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ (الشعراء: ١٣٠).

ولعمري إنّ البطش، بوصفه تطرّفاً، هو من أخطر أنواع الظلم التي تُؤذِن بخراب العمران، وهذا ما أشار إليه العلّامة ابن خلدون في قوله: "واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشرع في تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري، وهي الحكمة العامة المراعية للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال."[٣٥]

إنّ العمران البشري، بما فيه من بناء الأبراج العالية، وصناعة الصواريخ العابرة والطائرات النفّاثة، وتصميم المدن الضخمة، هو عمران ناقص ومُهدَّد بالاندثار ما لم يصحبه أمان روحي واجتماعي. ولعل هذا هو المراد من دعوة إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ (البقرة: ١٢٦).

- **الاحتفاء بالبناء العمراني**: لا شكّ في أنّ الاحتفاء بالمظاهر المادية للبناء العمراني فقط، وإغفال البناء الروحي للإنسان، يُقوّض دعائم المجتمع، ويُقلِّل من فرص التعاون والتعارف بين البشر. وتحفل سور القرآن الكريم بقصص أولئك الأقوام الذين قامت حضاراتهم على البناء والتشييد والمباهاة بالعمران، من دون أدنى اهتمام بروحانية الفرد ووجوده الإنساني. ونذكر منهم قوم هود، وعاد، وثمود، وفرعون، وأصحاب الجنة، وصاحب الجنتين.

فقد اهتم قوم هود -مثلاً- بعمارة الأرض حتى اقتصرت جهودهم وإبداعاتهم على بناء الأعلام، وتشييد المنارات التي يهتدي بها المسافر والمرتحل، فضلاً عن بناء القصور

---

[٣٥] ابن خلدون، عبد الرحمن. **المقدمة**، بيروت: دار الجيل العربي، د.ت، ص٣١٨-٣١٩.

على أشراف الأرض، وإنشاء برك للمياه يُجمَع فيها ماء المطر في فصل الشتاء ليشرب منه المسافرون، وينتفع به الجميع، خاصّةً وقت الجفاف وانحباس المطر.

والحقّ أنّ ذلك كلّه هو من الأعمال الدنيوية التي تنفع الناس في حياتهم، وتُيسِّر سبل معاشهم. فكلّ ذلك نافع للناس؛ لأنّ فيه حفظاً لأنفسهم من الهلاك والموت. ولكنّ إهمال الجانب العقدي، والاستكبار في الأرض، ونسيان اليوم الآخر يجعل تلك الأعمال هباءً منثوراً لا قيمة لها. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ (الفجر: ٦-١٤)، وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ (فصلت: ١٥).

وقال ﷻ: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (الزخرف: ٥١-٥٣).

وفي الأحوال كلّها يجب التمييز بين أمرين في ما يخصّ العمران:

- استحضار رضى الله تعالى في ما ينفع الناس، ويُيسِّر سبل معاشهم، وهو ما يستحق الثناء عاجلاً والثواب آجلاً.

- إغفال رضى الله تعالى في ما ينفع الناس أو يضرّ بهم، فيكون ذلك نوعاً من الرياء والغفلة عن اليوم الآخر، فضلاً عن الغرور والكِبْر والمباهاة بالحياة الدنيا، فصارت أعمال التشييد والبناء والعمران أشبه ما تكون بالعبث. قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ (الشعراء: ١٢٨-١٢٩).

ب. التوسّط:

التوسّط يقابل التطرّف، وهو أمر محمود مرغوب؛ لأنّ التطرّف انحراف عن الاستقامة وجادة الحق، وفيه كثير من التشدّد والغلوّ، فضلاً عن الانحلال والميوعة، فكان التوسّط

والاعتدال هو الردّ المناسب إلى الوسط الملائم[٣٦] الذي لا ميل معه إلى التشدّد الذي لا يطيقه عامة الناس وسوادهم الأعظم، ولا إلى الانحلال الذي يرفع عنهم سلطان المسؤولية.

لا يمكن فهم التوسّط بميزان حسابي نظري مجرّد ليقال مثلاً إنّ الإصلاح كامن في التوسّط بين الإفراط والتفريط،[٣٧] بل يُفهَم بميزان تقويمي عملي يراعي أحوال الناس وينظر في واقعهم. فحال صاحب هذا الفهم مماثل لحال الطبيب الماهر مع المريض؛ فلمّا كان خبيراً بفطرته كان عليماً بما يصلح له في عاجله وآجله. والطبيب الحاذق هو الذي ينظر مَليّاً في حال مريضه، وفي أسباب الشفاء التي تردّ عليه صحته وعافيته، لا بحسب معارفه المجرّدة فقط، وإنّما بحسب ما يطرحه حال المريض من حيث نوع المرض وشدّته، وما تُفرِزه عاداته من معطيات مختلفة.

فليس الفيصل في العلاج محفوظات الطبيب، أو معلوماته عن الأدوية التي يحفظها عن ظهر قلب، بل الفيصل أمران، هما: تشخيصه العلمي الدقيق لحالة المريض، واهتداؤه إلى مقادير الأدوية وكيفية تناولها ونسبها وأوقاتها. وبناءً على ذلك، فإنّ منهج التوسّط يتمثّل في سبر أحوال الإنسان، وقياسها دائماً بميزان القرآن الكريم ومقاصده؛ فلا يسبح التوسّط القرآني في بحور المطلقات المجرّدة، بل يسعى إلى ما فيه خير الناس وصلاحهم من دون إغفال للظروف المحيطة بهم؛ وهي ظروف تُحتِّم التشديد تارةً، والتخفيف تارةً أخرى.

---

[٣٦] وهو ما بيّنه الشاطبي -رحمه الله- بياناً عميقاً في قوله: "إذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلاً إلى جهة طرف من الأطراف فذلك في مقابلة واقع أو متوقع في الطرف الآخر، فطرف التشديد -وعامة ما يكون في التخويف والترهيب والزجر- يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين. وطرف التخفيف -وعامة ما يكون في الترجية والترغيب والترخيص- يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد. فإذا لم يكن هذا ولا ذاك، رأيت التوسط لائحاً ومسلك الاعتدال واضحاً". انظر:

- الشاطبي، أبو إسحاق. **الموافقات في أصول الشريعة**، ضبط وتعليق: عبد الله دراز، بيروت: دار المعرفة، د.ت، ج٢، ص١٦٧-١٦٨.

[٣٧] وذلك تبعاً للمقولة اليونانية "إنّ الإنسان مُعرَّض للإفراط والتفريط في استعمال قواه العقلية والشهوانية والغضبية، ومن ثَمّ كان مناط الفضائل هو التوسّط". وقد سبق أن اعترض عباس محمود العقاد على هذا الفهم؛ إذ لاحظ أنّ صاحبه قد أغفل العوامل النفسية والقيم الروحية والأخلاقية. انظر:

- العقاد، عباس محمود. **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه**، مصر، ط١، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٧م، ص٢٨٣.

ولا شكّ في أنّ التوسّط هو نتاج طبيعي لما أفضت إليه تحليلاتنا واستنتاجاتنا لواقع الناس المعيش وما ينبغي أن يكون عليه. لذا، لا بُدّ من المكابدة، وبذل الجهد العلمي اللازم لإدراك التوسّط في مختلف مناحي الحياة. وبهذه المكابدة وهذا الجهد تستحق الأمّة الإسلامية وَصْفَ التوسّط الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣). ففي الآية الكريمة دلالة واضحة على تشريف الله لهذه الأمّة بوصف الوسطية الذي يُؤهِّلها لقيادة البشرية، وهداية الأمم الأخرى إلى الخير.

وعلى قدر اتصاف الأمّة بهذه الفضيلة فإنّها تستحق ثناء الله تعالى، والاضطلاع بمهمة هداية الأمم الأخرى للخير في هذه الحياة. فقوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣). هو بمثابة العلّة أو المقصد؛ أي ما كان لكم أن تكونوا شهداء على الناس لو لم تكونوا مؤهّلين لهذه الشهادة وهذه القيادة عن طريق العمل، وتحمّل مسؤوليات التكليف بأحكام الإسلام وتعاليمه.

خلاصة القول إنّ التوسّط -بوصفه سبباً للصلاح والإصلاح- ليس فضيلة أخلاقية فحسب؛ لأنّه سلوك منهجي يُهيِّئ الأمة الإسلامية لكي تتبوأ الشهادة على الناس، والدعوة لهم بالهداية والرشاد. فالتوسّط في القرآن الكريم[٣٨] يعني الامتياز والتميّز الذي لا

[٣٨] ورد التوسّط أيضاً في الآية الثامنة والعشرين من سورة القلم: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (القلم: ٢٨)؛ أي أعقلهم، وأخيرهم، وأقربهم إلى السداد والخير والصواب. وورد كذلك في الآيات (١-٦) من سورة العاديات: ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ ﴾ (العاديات: ١-٦). فمعنى "فوسطن به جمعا": كُنَّ وسط الجمع من الناس كثمرة ونتيجة كان لأجلها العدو والإغارة. وورد ذكر التوسّط أيضاً في السنّة النبوية؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يدعى نوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد. فيقال لنوح: من يشهد لكم؟ فيقول: محمد وأمته فذلك قوله "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً" قال: الوسط العدل". انظر:

- ابن حنبل، أحمد بن محمد. **مسند أحمد**، تحقيق أحمد شاكر وحمزة الزين، دار الحديث، ١٩٩٥م، حديث رقم٣٢٣.

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (نوح: ١-إلى آخر السورة)، حديث رقم٣٣٣٩.

يحصل بمجرّد الانتساب إلى الأمة الإسلامية، بل يحصل بالمكابدة، والعلم، والقدرة، والاستقامة، والالتزام بتعاليم الدين الحنيف. وبناءً على ذلك كلّه يكون التوسّط الذي عرَّفه ابن عاشور -رحمه الله- بأنّه: "إعطاء كل شيء حقه من غير زيادة ولا نقصان."[٣٩]

خاتمة:

عرضنا في هذا البحث منشأ القضية الإصلاحية في القرآن الكريم، ورددناه إلى سببين رئيسين: أولهما الجمود والتناقض المُفضِيان إلى الفساد ممّا يستلزم التدافع الذي به يكون الصلاح. وثانيهما الإسراف الذي يؤدي إلى الفساد ممّا يُحتِّم التوسّط الذي يكون به الصلاح. ولا شكّ في أنّ فهم أسباب الإصلاح تُعِيننا على الخلاص من متاهات اليأس والقنوط، وتفتح لنا آفاق التفاؤل والثقة بالمستقبل. وقد علّمنا القرآن الكريم أنّ كلّاً من الإنسان الصالح، والمجتمع الصالح يُجهد نفسه في السعي إلى الإصلاح واكتسابه. ولكن، إذا لم يُوفَّق إليه بتمامه، فهل يستسلم لواقعه ويعتريه اليأس؟ لا ينبغي الاستسلام أو التسليم بذلك، فالحكمة تقتضي الإقرار بما توصَّل إليه من نتائج، ثمّ إعادة الكَرّة مرةً أخرى.

إنّ الإصلاح -انطلاقاً من الوعي الدقيق بأسباب تحصيله- مرتبط بإرادة إنجازه وتحقيقه؛ لأنّ صاحبه يدرك عِظَم المهام المُلقاة على عاتقه، التي تُحتِّم عليه مواجهة ما يعترض سبيله من عوائق داخلية وموانع خارجية، ودراسة أسبابها، وتعرُّف حقيقتها وأحوالها، وعدم الاستسلام لها.

ولعل أبرز ما توصَّلنا إليه في هذا البحث، هو افتقار معظم تعريفات الإصلاح إلى التمكّن المعرفي الذي يتيح لنا فهم أسباب الصلاح أو الفساد الوارد ذكرها في القرآن الكريم. وبعبارة أخرى، فقد تناول البحث مفهوم الإصلاح في القرآن الكريم بوصفه بنيةً مركّبةً من التدافع والتوسّط، يقابله مفهوم الإفساد المركّب من الجمود والتناقض والتطرّف.

[٣٩] ابن عاشور، محمد الطاهر. **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، الشركة التونسية للتوزيع، الدار العربية للكتاب، ١٩٧٧م، ص٢٤.

وتأسيساً على ذلك، يوصي الباحث بدراسة الإصلاح بوصفه نتيجةً يُفضي إليها سلوك منهجي قوامه التدافع والتوسّط مقابل الجمود والتطرّف. فالإصلاح هو فعل إنساني مركّب مشوب بالقصور والنقص؛ لأنّ الله تعالى ذَيّل خطابه للصالحين بوصف "الأَوْبَة" ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ (الإسراء: ٢٥). وندرك -انطلاقاً من هذا التقصير والنقص- الواقع غير المكتمل لبنية الإصلاح الذي مرّ بحقب عدّة سعى فيها أنبياء الله ورسله إلى دعوة الناس إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم، وترك ما يضرّهم ولا ينفعهم.

وقد حثّ القرآن الكريم المسلمين على محاولة إصلاح واقعهم المعيش، خاصّةً أنّ الفساد الأخلاقي والسياسي والإداري والاجتماعي والمالي قد استشرى في هذا العصر، وهو فساد متغلغل متداخل مع ظواهر الإجرام في المجتمع ومؤسساته المختلفة؛ إذ لم يَعد الفساد مقتصراً على الرشوة، أو نهب المال العام، أو المحسوبية، أو الظلم، بل أصبح منظومةً متكاملةً لها أسبابها وأحوالها وسبلها التي ترسّخت في نفوس العديد من الناس حتى غدا الفساد سنّةً أو نهجاً مُحبَّباً في العيش، وفي التعاملات المالية والاقتصادية والسياسية. وبذا، فقد أصبح الفساد نسقاً لا يمكن مواجهته إلّا بفهمه أولاً بوصفه بنيةً متماسكةً في أسبابها، مترابطةً في مُسبِّباتها. ثمّ طرح بنية بديلة عنه.

ولا يقتصر القول ببنائية الإصلاح على الأسباب فحسب، بل إنّه يشمل مظاهر الاعتقاد والتفكير والعمل التي يتمثّل بها الإصلاح. لذا، يوصى باعتماد البنائية في فهم مظاهر الإصلاح؛ سواء أكان ذلك في الخطاب القرآني أم الواقع الإنساني.